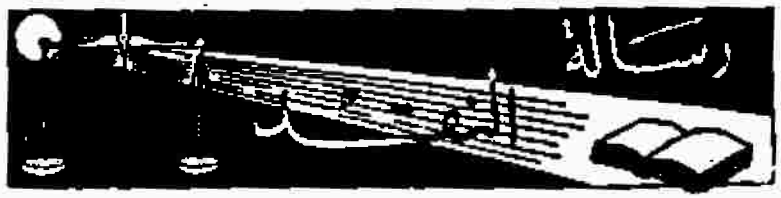

نظرات في كتاب الأشربة

للأستاذ السيد أحمد صقر

اختلفت كلمة العلماء في « الأشربة » منذ فجر الإسلام ، وذهبوا في موقفها من الحل والحرمة مذاهب شتى ، ولجت بينهم الخصومة ، وابتغى كل فريق أن يظهر على خصمه ، ويدفع عن رأيه ، فماج الشك في عقول الناس وأفكارهم ، وتداخلتهم الحيرة ، وتنازعتهم الروايات المتضاربة ، والأحاديث المتباينة . وكانوا منها في أمر مريج . وقد ألف في الأشربة كثير من العلماء . وممن ألف فيها أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، وقد ظل هذا الكتاب مطوياً في الخزائن حتى عثر عليه المستشرق الفرنسي « أرتوركي » فأعجب به ونشر أكثره في سنة ١٣٢٥ هـ — ١٩٠٧ م في مجلة « المقتبس » التي كان يصدرها في القاهرة الأستاذ محمد كرد علي . وقد رأى الأستاذ أن الكتاب خليق بالعناية ، جدير بأن يطبع مستقلا ، فبذل وسعه في تحقيقه وأدرجه في مطبوعات المجمع العلمي ، وقدم له بمقدمة طويلة يبدو أنها جاءت وحي ساعتها ، وفيض جلستها ، لم يجمع لها عزماً ، ولم يشحذ فهماً ، ولم يعمل فكراً ؛ وإنما أطلق لقلمه العنان يجول هنا وهناك حسبما توحي به النظرة الطائرة ، والفكرة السابرة ، والهوى الجموح .

ومما جاء في هذه المقدمة العجيبة قول الأستاذ في ص ٤ : « اشتد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم ، وفي كتابه « تأويل مختلف الحديث » طعن مبرح في الجاحظ قال فيه : إنه أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً ، هجين ابن قتيبة الجاحظ وكفره ، ورماه بأعظم كبيرة وهي الكذب ، وسجل عليه أنه أكذب واحد في الأمة لأنه كتب أشياء تنفع في تربية العقول في الدنيا ، كما كتب كل ما ينفع في الدين ، وابتدع أدباً يسلي ويعلم ، فهل من العدل أن يرى بوضع الحديث ، وتشدده وتشدد أهل مذهبه في تحري السليم من السقيم في الحديث لا يحتاج إلى دليل ؟ »

إن ابن قتيبة لم يظلم الجاحظ ، ولم يهجنه حسداً من عند نفسه ، ولم يتهمه بالكذب لما زعمه الأستاذ ، بل أنصفه وقال فيه ما له كاملا غير منقوص ، ونقده في بعض رأيه بما لا يسم العلم الحقيق إلا نقده ورده على قائله كائناً من كان . وإليك نص كلام ابن قتيبة في كتابه تأويل مختلف الحديث ، جاء في ص ٧١ من هذا الكتاب ما يلي : « ثم نصير إلى الجاحظ ، وهو آخر المتكلمين ، والمار على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشيء ونقيضه ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشراب النبيذ ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان ، وذكر الحجر الأسود وأنه كان أبيض فسوده المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ، ويذكر الصحيفة التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة ، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه في رأسه ، وتسبيح الضفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سنذكره فيما بعد إن شاء الله ، وهو مع هذا من أكذب الأمة ، وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » .

هذا هو رأي ابن قتيبة في الجاحظ ، وهو يلتف ما يقوله عنه الأستاذ . ولست أدري كيف استباح لنفسه الطعن في ابن قتيبة بذلك الأسلوب الهكمي مع أنه لم يستطع أن ينقد مما قاله حرفاً واحداً ، أراه كان ينتظر منه تقريظ الجاحظ لاستهزائه بحديث الرسول ؟

وإن تعجب فعجب قول الأستاذ بعد ذلك « وكيف لمسري قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء وهو القائل في عيون الأخبار من تأليفه : وليس الطريق إلى الله واحداً ، بل الطرق إليه كثيرة ، وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان ، وصلاح الزمان بصلاح السلطان ، وصلاح السلطان بعد توفيق الله بالإرشاد وحسن التدبير » ما هذا الكلام ؟ وما ذا

يريد الأستاذ بإيراده ؟ بل ما معناه ؟ وما علاقته بالموضوع ؟ ولست أدري ، ولعل الأستاذ وحده يدري !

وأعجب مما سبق قول الأستاذ بعد ذلك عن ابن قتيبة : « ورمى أيضاً أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه ، ووصفه بأنه كذاب أفاك ، وطعن فيه أشنع طعن . وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشرس منه ، وهما الأئمة ، ورمى هذا برقة الدين وتنقص الإسلام والاستهزاء به . وطعن في النظام أيضاً وهو الذي رد على الملحدين والدهريين شطراً كبيراً من عمره »

من أين علم الأستاذ أن ابن قتيبة افترى على أبي الهذيل الكذب ووصفه بما ليس فيه ؟ هل قرأ كتب التوحيد وألفى فيها ما يكذبه ؟ هل قرأ كتب التراجم ووجد فيها نكاية له في تكذيبه ؟ إنه لم يقرأ شيئاً من هذه ولا تلك ! وآية ذلك أنه وصف ابن قتيبة له بالبخل ورقة الدين مسطور فيها جميعاً . وقد كرر الجاحظ في كتبه وصفه له بالبخل ، وقال عنه : « إنه كان أبخل الناس » ووصفه كذلك بأوصاف كثيرة وفي طليعتها النفاق . واتفق المترجمون له والباحثون لمذهبه في كتب التوحيد على أن دينه كان أوهى من بيت العنكبوت . قال الخطيب البغدادي في ترجمته ٣ / ٣٦٦ « وكان أبو الهذيل خبيث القول ، فارق إجماع المسلمين ورد نص كتاب الله إذ زعم أن أهل الجنة تنقطع حركاتهم فيها حتى لا ينطقوا ولا يتكلموا بكلمة ، فلزمه القول بانقطاع نعيم الجنة عنهم والله يقول : (أكلها دائم) ، وجحد صفات الله التي وصف بها نفسه ، وزعم أن علم الله هو الله ، وقدرة الله هي الله ، فجعل الله علماً وقدرة ، تعالى الله عما وصفه به علواً كبيراً » ومذهب أبي الهذيل في انتهاء حركات أهل الجنة والنار قريب من مذهب جهم بن صفوان الذي زعم أن الجنة والنار تفنيان وتبيدان ويفنى من فيهما حتى لا يبقى إلا الله وحده كما كان وحده لا شيء معه . بل إن مذهبه شر من مذهب جهم كما يقول البغدادي في « الفرق بين الفرق » . « لأن جهماً وإن قال بفناء الجنة والنار فقد قال : إن الله قادر بعد فنائهما أن يخلق غيرهما . وأبو الهذيل زعم أن ربه لا يقدر بعد انتهاء الحركات على تحريك ساكن أو إحياء ميت أو إحداث شيء » . ويقول البغدادي عنه أيضاً في ص ٧٢ « وفضائحه تترى ، تكفره فيها سائر فرق الأمة من أصحابه في الاعتزال ومن غيرهم » أبعد ذلك يعير الأستاذ على اتهام ابن قتيبة بأنه وصف أبا الهذيل بما ليس فيه طعناً بغير الحق وتشنيعاً ؟ وكما كان ابن قتيبة صادقاً منصفاً في حكمه على أبي الهذيل العلاف فإنه كان كذلك صادقاً منصفاً في حكمه على ثمامة بن الأشرس بأنه كان يتنقص الإسلام ورسول الإسلام ويحقد عليهما حقداً غليظاً ، ولا أريد أن أنقل من حمائد لسانه في ذلك شيئاً وحسبي أن أنقل للأستاذ الناشر ما قاله البغدادي عنه في ص ١٠٢ ، ١٠٤ « وكان زعيم القدرية في زمان المأمون والمعتصم والواثق ، وانفرد عن سائر أسلاف المعتزلة ببدعتين أكفرته الأمة كلها فيهما »

وأما طعن ابن قتيبة في النظام فيكفي في تبريره فوق ما ذكره بالتفصيل في كتابه قول البغدادي في ص ٨٠ « وجميع فرق الأمة من فريق الرأي والحديث ، مع الخوارج والشيعة والنجارية ، وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام » . ولعل الأستاذ « محمد كردي علي » يؤمن بعد هذا بأن ابن قتيبة لم ينل « في طعنه بما لا يناسب عظمة علمه وأخلاقه » وأنه إنما انتهج النهج الذي رسمه لنفسه ، وهو أن يُصحر برأيه فيما ارتأى ، لا يظلم الخصم ولا يؤثر الهوى ...

(يتبع) السيد أحمد صقر

عالم الذرة

أو

الطاقة الذرية والقنبلة الذرية

تأليف الأستاذ العالم نجيب الحداد

كتاب صدر في وقته ، يشرح لك ما لا بد أن تعرفه عن الذرة ونواتها ونقتها وطاقتها وأثرها في مستقبل العلم ، وعن القنبلة الذرية وتجاربها وانفجارها وأثرها في مستقبل الإنسان .

يطلب من دار الرسالة . ومن المؤلف بشارع البورصة الجديدة رقم ٢ ومن سائر المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٠ قرشاً بخلاف أجرة البريد .